اما حقيقة النشاط الفدائي العسكري في المنطقة فحقيقة ثابتة ولا تحتاج الى طويل حديث . فمن جهة يؤكد الحديث الوثائقي باستمرار عن حالة « النشاط المتزايد » للعمل الفدائي او حالة « التصاعد » في عدد ونوع العمليات العسكرية الفدائية(١١). ومن جهة ثانية فان حديث العدو الراجف والنادب يضيف للحقيقة تأكيدا هي ليست بحاجة اليه : فتصاعد العمل الفدائي في القطاع ادى الى اجتماعات خاصة عقدها مجلس الوزراء الاسرائيلي « قلقا » منه بسبب الوضع(١٢). وصحيفة « دافار » الاسرائيلية تشير الى عدم فعالية الاجراءات التي اتخذتها قوات الاحتلال وتؤكد على ان « المقاومة ما تزال مستمرة »(١٣). ومن ناحية اخرى فان « الملكيين اكثر من الملك » في صحيفة « الفاينانشال تايمز » يؤكدون على « انه على امتداد الاشهر الستة الماضية فان الحالة تزداد تدهورا ... فاذا نظر المرء للموضوع من الزاوية الاسرائيلية فان الارهابيين العرب قد زادوا نشاطهم بشكل متصاعد وزادوا من التضييق على القوات الاسرائيلية ، وزادوا من تدخلهم مع التجار ، وشجعوا على العصيان المدني ونفذوا عددا متناميا من الاغتيالات والقاء القنابل ضد السكان (؟) المدنيين»(١٤). اما صحيفة « النيويورك تايمز » فتتحدث بمهارة عن المقاومة في قطاع غزة فتقول : « الامور في الاشهر الاخيرة من العام الماضي (المقصود عام ١٩٧٠) اصبحت سيئة للغاية (؟) اذ ان حوادث الارهاب والقتل اصبحت حوادث يومية تقريبا الى درجة ان مجلس (الوزراء) الاسرائيلي صوت يوم الثالث من يناير لصالح سياسة أمنية جديدة وقاسية »(١٥). وتؤكد صحيفة دافار الاسرائيلية على النقطة ذاتها اذ تتساءل : « من يتابع حالة الامن في قطاع غزة يصل الى استنتاج مؤلم جدا . ان السؤال الذي لا بد من طرحه : من يحكم غزة حقا ؟ » وتجيب الصحيفة ذاتها على سؤالها فتقول : « منذ حرب الايام الستة يسيطر الجيش الاسرائيلي على مناطق اليهودية والسامرة (المقصود الضفة) وغور البحر الميت وهضبة الجولان . ويزداد عدد اليهود الذين يزورون هذه المناطق كسياح وللقيام باعمال تجارية وزراعية. اما قطاع غزة فانه « مغلق » امام هؤلاء الاشخاص واصبح بمثابة منطقة « خارج النطاق » لان كل من يحرص على روحه يمتنع عن الاقتراب من مداخلها »(١٦).

من باب الوصف العلمي ، ليس الا ، نقول ان الاجراءات تلك كانت خطوات ما شهدت قريحة اي نظام فاشي مثيلا لها في قساوتها . ومع ذلك ، نسارع الى القول ، بأن تلك الاجراءات لم يكن لها اثر اكثر من اثر السم الذي يحقن في الجسم ولكن اثره لا يعدو كونه « مصلا » يولد في الجسم مناعة وقوة . وهكذا راينا المقاومة الفلسطينية ، عبر ما مورس ضدها من عسف ، تضيف الى رئتي تنفسها رئة جديدة سمحت لها بقدر اكبر من التنفس الذي له نتيجة واحدة هي : مزيد من الحيوية : فلا قتل النساء والاطفال بسبب عدم توقفهم عن المشي حين يطلب اليهم ذلك ولا منع التجول الطويل ، ولا اعتقال كل من عمره يتراوح بين ١٢ ــ ١٤ عاما فاكثر ، ولا حشر النساء في البيوت ومنعهن من قضاء حاجاتهن ، ولا « تجديد » عهد الرق عبر الـ ٩٠ سنتا التي تعطى للعمال كاجرة يومية ، ولا ازدياد اسعار الغذاء بشكل فاحش(١٧)، ولا اجراء من هذه ادى الى اجتثاث جذور المقاومة .

كما ان اجراءات طرد عائلات المناضلين المطلوبين لسلطات الاحتلال ، وتوظيف العسكر « اصحاب القبعات الحمر » (خبراء العسف والاضطهاد) لم يؤد الى وقف حركة العمل الفدائي(١٨). ايضا لم تؤد خطة « العملية الجراحية النظيفة » التي هدفت الى ترحيل سكان غزة الى شرق الاردن الى تحقيق اي من اهداف سلطات الاحتلال(١٩). ولا مضاعفة قوات الجيش الاسرائيلي (خاصة اولئك من اصحاب « القبعات الخضر ») وحملات التفتيش بيتا بيتا(٢٠) ، او حملات الارهاب والتعذيب والقتل، لم تعط ايا من ثمارها المطلوبة او المتوقعة . ان مظاهر التحدي ، خاصة بين نساء مخيمات القطاع، التي واجهت ابرز عناصر المؤسسة العسكرية (شلومو جازيت) اثناء رحلته الاخيرة الى غزة ، دليل لا يقبل اي جدل ، عن عنف وحيوية المقاومة الجماهيرية للاحتلال(٢١).

ومرة اخرى نعود الى صحيفة «دافار» الاسرائيلية. تقول الصحيفة : « ان سكان غزة لا يهزهم هدم البيوت على جهتي شارع « الوحدة » . هذا الذي حدث بعد مقتل تاجر اسرائيلي . ان عملية الهدم هذه لم تترك اثرا للتقاعس في نفوس المواطنين . ومع ان الحكم الاسرائيلي قد نصب الجنود في الساحة الرئيسية للمدينة واقفل كل الشوارع الفرعية التي تؤدي الى شارع عمر المختار الرئيسي